الفصل الثاني

تناقضات من واقع الحياة

(شوية حاجات)

(١)

التنميط المميت

من أكثر الأشياء المُحيِّرة والمقلقة معًا في مصر، هي كثرة التنميط الذي يختفي معه تقدير الاختلافات الفردية، ففكرة عمل أشياء بعينها لمجرد قيام الآخرين بها، هي نمط يكاد يكون سائدًا في مختلف الأوساط الاجتماعية والثقافية.

كثيرٌ من المصريين يرغبون في أنْ يصبح أبناؤهم إما أطباءً أو مهندسين بغض النظر عن قدرات هؤلاء الأبناء، فليس من المنطق في شيء أنْ يعتقد كثير من الآباء أنَّ هذا هو أفضل ما سيقوم به أي طفلٍ في العالم، وتخيلوا معي لو أنَّ اللاعب العبقري مارادونا كان طبيبًا، وليس هذا الساحر الذي أمتع الملايين بإبداعٍ لا يقلُّ في أي حالٍ من الأحوال عن المجالات الأخرى.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة في كل مجالات الحياة، تخيَّل معي العظيمة فيروز إذ قام والداها بإجبارها على أنْ تصبح طبيبة أو مهندسة، تخيَّل معي فاروق الباز، بيل جيتس، محمد يونس، فاتن حمامة، والأمثلة كثيرة وعلى الجميع أنْ يبدأ في حصر الأمثلة، فتنميط قدرات الأفراد هو أمر عبثي، فالتنميط يحجب رؤيا الأفراد في اكتشاف قدراتهم، وتلك هي الكارثة الكبرى، قد يحيا شخص ويموت، وهو غير مدركٍ لِما يستطع أنْ يقوم به، وهو قد يستطيع

القيام بأشياء عظيمة، لولا خضوعه لذلك القالب المميت، فإياكَ من أي قالبٍ، علينا أنْ نكسر تلك القوالب، وعند كسر القوالب سوف تنفتح آفاقًا جديدة، وسوف نرى أشياء جميلة.

ورؤية الإنسان لنفسه بصدقٍ، ومعرفة قدراته الحقيقية، وأيضًا التفتيش الدائم المتواصل في دواخلنا، سوف يصيبنا بالدهشة مما نستطيع عمله، فنحن نستطيع عمل الكثير حين نؤمن بفرديتنا وتفرُّدنا، ونخسر أشد الخسارة حين نركّز على تقليد الآخرين.

لماذا تقام سرادق عزاء مكلّفة في كثير من الأماكن الشعبية في مصر؟ وقد تجد أنَّ بعض أهالي المتوفى، قد اقترضوا أو باعوا مما يملكون حتى يكون العزاء لائقًا بالمتوفى، ونتوقف هنا عند كلمة (لائقًا بالمتوفى).. هل لها أي علاقة بالمنطق؟ هل يوجد أي منطقٍ في استدانة الشخص لكي يقيم العزاء الفاخر المتفاخر به؟ فما هي الأهمية القصوى من وراء ذلك؟ ناهيكَ عن استخدام مكبرات الصوت سواء كان فرحًا أو مأتمًا، مع العلم بوجود قاعات سواء للأفراح أو العزاء في جميع الأماكن، فاستخدام مكبرات الصوت إنْ دلَّ على شيءٍ، إنما يدل على مشكلة ما يعاني منها أصحاب الفرح، إذ أنَّ لديهم إصرارًا غير طبيعي على إخبار الجميع بأنهم سعداء، وسوف تقل تلك السعادة حين لا يعرف الآخرون، وسوف يعرف الآخرون مدى سعادتهم سواء أراد الآخرون أم لا، لا يوجد منطق يبرر هذا الاستخدام التعسفي لمكبرات الصوت سواء كان ذلك فرحًا أم حزنًا.

مازال كثير من المصريين يشتري قطعة أثاث لا يُعرف حتى الآن استخدامها، أو أين يجب أنْ توضع بالمنزل، النيش Niche وهي عادة موروثة من الصعب أنْ تجد لها منطقًا محددًا، فكثير من الناس يشتريها مع العلم بأنها ليستْ رخيصة، أو لها استخدام محدد بالمنزل، ولكننا تعودنا على أنْ نشتري تلك القطعة دون وعي أو إدراكٍ لماذا نشتريها.

فشراء تلك القطعة ما هو إلّا نمط سلوكي مكرر، فقليل من التفكير المنطقي فيما نقوم به من أفعال، سوف يطرح الكثير من الأسئلة المنطقية في نوعية حياة يغيب عنها المنطق في كثيرٍ من الأحيان، وتلك اللامنطقية التي تحيط بنا من كل الاتجاهات، تجعلنا نتمسك بشدة بأنْ يسود المنطق بحيث تصبح لدينا قدرة أفضل على رؤية الحياة.

(٢)

التطفل البغيض

نتساءل دائمًا عن سرٍّ تدخل الآخرين في حياتنا بطرقٍ سافرة، إذ أنهم يتدخلون ليل نهار، وكأنَّ لا رادع لهم ينهاهم عن العبث بحياة الآخرين، وكأنَّ لهم مصلحة ما، وهم دائمًا في وهمٍّ أنهم على دراية بمصلحتكَ أكثر منكَ، وما يثير أعصابكَ هو ذلك الإلحاح المتواصل على إسداء النُّصح في كل الأشياء التي لا تعنيهم، بدءًا من.. لماذا لم تتزوج أو تتزوجي حتى الآن؟ ولابد أنْ تتزوج الآن حتى تستطيع أنْ تربي أولادكَ، ويكبروا في حياتكَ!.

وحين تتزوج توجد أسئلة أخرى، مثل: متى ستأتي الأولاد، ثم متى يأتي إخوة للأولاد، وحين يتم كل ذلك، يسألكَ متى ستنتقل إلى شقة أكبر، ثم متى تنتقل إلى منطقة أرقى، وهلُم جرى حتى تكاد من شدة كظم الغيظ أنْ تفتك بمحدثكَ، وقد يكون هذا الكلام منطقي وصحيح، لكنَّ المشكلة ليستْ أبدًا في ذلك، وغالبًا ما يدرك محدثكَ أنكَ تفهم وتعي ما يقول تمامًا، لكنْ ما يقوله يستفيد هو منه في رفع الكثير من روحه المعنوية، إذ يشعره ذلك بالتفوق ولو للحظاتٍ.

حين تجلس إلى كثيرٍ من الناجحين المنجزين، فهم غالبًا ما يسدون النُّصح فقط حين يُطلَّب منهم، ولا يتكلَّمون في كل الأشياء، بل فقط فيما يعرفون، ويستخدمون كثيرًا كلمة "لا أعرف" التي لا تستخدم كثيرًا في مصر.

وكلما زاد الإنسان معرفةً، كلما زاد تواضعًا، وزاد إدراكًا بمدى أهمية المعرفة والعلم.

والتدخل في حياة الآخرين أحد سمات الفاشلين، فجُل همهم في الحياة هو وضع خطة للآخرين... حين تنشغل حقًا بما أنتَ فاعل في تلك الحياة، سوف تجد من الصعوبة بمكان أنْ تجد وقتًا حتى تبحر في حياة الآخرين محاولًا إيجاد حلولٍ لهم.

قمة السعادة أنْ نبحر في تلك الحياة، نستكشف الجديد كي نتعلَّم منه، وهذا الاهتمام الشديد بحياة الآخرين ما هو إلَّا مرض معذب للجميع، ودائمًا ما نستمع إلى نفس الجملة، أنَّ محدثكَ يقترح وينصح ويسأل لا لشيءٍ سوى أنه يطمئن عليكَ، وهذا يثير الأعصاب أكثر من أي شيءٍ آخر، فتصبح في حيرة من تلك الشخوص، ولا تعرف كيف تصنِّف هذا الاهتمام المحموم.

صديقي لا عليكَ أنْ تفعل شيئًا سوى أنْ تتجاهل هذا التطفل، فلابد أنْ نتحرك إلى الأمام، وحين نتحرك سوف تخفت تمامًا أصوات المتطفلين، فالحركة للأمام هي الحياة.

حين تجلس منصتًا لنصائح الآخرين، سوف يخفت صوتكَ الداخلي، ولن تسمع ما تصبو إليه حقًا، أنْ تكون لديك الفرصة أنْ تكتشف بنفسكَ ما تبغي أنْ تقوم به في تلك الحياة حتى وإنْ رآه الآخرون تافهًا حقيرًا.

(٣)

حكمة السنين (جدتي)

كانت "بلبل" تعمل في بيت العائلة، كانت تساعد جدتي في كافة الشئون المنزلية، وما بقي في ذاكرتي هو وقت الغداء، حيث كنا نأكل جميعًا وبلبل معنا أيضًا، وكانت ذي خفة ظل وروح مرحة صافية، مبتسمة دائمًا، وفي ذلك الحين لم أُفكر كثيرًا في روعة ما كانت تقوم به جدتي، إذ كنتُ صغيرًا، ولكنه كان ذا تأثيرٍ عميق فيّ، إذ كانت البساطة هي العامل الأساسي، والمحرِّك للأحداث من حولي، وحين أرى اليوم مدى هيمنة فكرة التباهي، الفشخرة، وانتفاخ الذات، أذكر جدتي وكيف كانت تتعامل مع "بلبل" وكم ذكي هذا السلوك رؤيتي للحياة.

الفشخرة سلوك مرضي، يتفشى في كثير من الطبقات الاجتماعية المصرية، ويحرِّك السلوك في اتجاهات مضادة للحياة، إذ يصعب أنْ يتعامل مع الحياة ببساطة وهدوءٍ، حين يتطور هذا السلوك عند شخصٍ ما، يصعب عليه الاستمتاع بالحياة بدون فشخرة، وتسبب الاحتياجات المصاحبة للفشخرة مشاكل عديدة، أحيانًا لا يستطيع الفرد تلبية احتياجات الفشخرة، ولكنه يجد نفسه أحيانًا مضطرًا أنْ يتبع سلوكًا ما مهما تكن العواقب، وعليكَ التفكير مليًا في جملة تتكرر في كثير من الأوساط الاجتماعية "الناس تاكل وشنا"

وارتباط سلوكٍ ما بما سوف يقول الناس عنكَ إنْ لم تقم به، يثير كثير من الأسئلة حول مدى حريتكَ في تنظيم حياتكَ، وسلوك الفشخرة مرتبط أساسًا بضعفٍ شديد في الشخصية، إذ أنه حين لا يقوم به المتفشخِّر، يشعر أنه ينقصه الكثير، ويصبح بالتالي أساسًا حياتيًا، في العلاقات العميقة تنبع قيمة الإنسان من وجوده هو، وليس مما يملك، فمهما تمتلك فلن يؤثر ذلك على قيمتكَ سوى لفترة مؤقتة، ومع أشخاصٍ لا يحبونكَ لذاتكَ، ويزيد هذا السلوك في "المجتمعات الموجهة من الآخرين others oriented society".

وهي ظاهرة واضحة في المجتمعات التي تتصرف وفقًا لما يتفق عليه المجتمع كسلوكٍ أو اتجاهٍ مقبول، وينسحب ذلك على كثيرٍ من العادات الاجتماعية في الزواج والممات، ففي وقتٍ ما تتجه معظم البنات لطلبٍ ما في الشبكة، أو إقامة الفرح في مكانٍ ما وبطريقةٍ ما، ويتجه كثير من الشباب للالتحاق بدراسةٍ ما، وشراء نوعٍ ما من السيارات بحكم تأثير الآخرين، وليس بحكم القناعة الشخصية.

والمشكلة تكمن في عدم البحث، والتفتيش العميق عمَّا يريد الشخص، بل يتحول الفرد في بعض الأحيان لشخصٍ يبحث عن رضاء الآخرين.

(٤)

المرأة شريك حقيقي

في باريس حيث الذهاب للسوبر ماركت متعة شديدة، اشتريتُ الكثير من الخضروات، ولأني معتاد أنَّ ثمَّة شخصٍ ما يقوم بالوزن، ومن ثمَّ وضع السعر، فقد ذهبتُ لماكينة الدفع، وكان أمامي شاب وشابة، فوجدتُ أنَّ ما معهم من خضروات عليه السعر، ووجهتُ سؤالًا لهم عن كيفية عمل ذلك، وتحدثتْ الشابة لي بل وذهبتْ معي لقسم الخضروات، وشرحتْ لي الطريقة ثم رحلتْ، وظلَّلتُ أفكر أنَّ لو حدث نفس الشيء بمصر، سوف يقوم الشاب بالرد على كل أسئلتي، وقد لا تتحدث الشابة، وسوف اخاطب الشاب، وقد لا أنظر إلى الفتاة، وهذا هو أحد جوهر الاختلافات السلوكية بين الغرب عمومًا والشرق، لا تشعر البنت في الغرب بالتهديد من الشباب، فتتحدث معهم بثقة وحرية، وبالتالي ينشأ شكل أفضل في العلاقة عمَّا هو قائم في الوقت الحالي في المجتمعات الشرقية، وخصوصًا مصر.

كلما زادتْ الثقة بين الأطراف المشاركة في الحياة، كلما زادتْ فرص النجاح، وهذا ينسحب على الصداقة والزواج وعلاقة العمل، والثقة علاقة تراكمية، لذا فمن الصحي بل ومن الواجب أيضًا أنْ يكون التعليم مختلطًا، رغم كل المشاكل المصاحبة لذلك، فهو يحتاج

إلى جهدٍ أكبر في التعامل، ولكنْ يظل السؤال المحير في المجتمع المصري مع كثرة عدد المحجبات والمنتقبات، وعمومًا ملابس المصريات محافظة، تظل مشكلة التحرش الجنسي ظاهرة منتشرة، ومشكلة التحرش لا ترتبط ارتباطًا تلازميًا بما ترتدي المرأة، بل بما يوجد داخل عقل الرجل.

في فترات سابقة بمصر أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، كانت ترتدي المرأة ما يحلو لها وفقًا للموضة في ذلك الوقت، ولم نكن نسمع عن التعارض الأخلاقي بين ما ترتدي المرأة والأخلاق الحميدة.

في نهاية المطاف يجب أنْ يعتاد الفرد على فكرة الاختلاف، وحين يختلط الفرد بثقافاتٍ جديدة، فهو في حالة تعلُّمٍ دائم، يعرف عن الآخر ويفهم، وقد يقبل أو يرفض سلوك الآخرين، لكنه أبدًا لا يرفض الآخرين.

(٥)

الدنيا مش حلوة غير بالمجانين اللي فيها!

هذا ما قالته سماح أنور في فيلم "امرأة واحدة لا تكفي" وما قالته صحيح جدًا، فجزء من الإبداع والتغيير يكمن في الجنان، بمعنى الخروج عن المألوف أو السائد في وقتٍ ما.

الأخوان رايت The Wright brothers خرجا عن المألوف، وحاولا جاهدين تغيير الواقع، وقد اعتبرهما الكثيرون مجانين، لكنهما لم ييأسا، وقدما للبشرية أهم وسائل النقل.

وينسحب نفس الكلام على الدكتور طه حسين، فلم يقبل الأشياء كما هي، بل تفحَّص وتمحَّص فيها، وراجع وحلَّل كل النصوص والأفكار التي وقعتْ تحت يده، لم يقبل الأمور كما هي، اعتبره الكثيرون مجنونًا، وآخرون زنديقًا كافرًا، والبعض الآخر اعتبره مجنونًا ضلَّ طريقه إلى مستشفي الأمراض العقلية، لكنْ يظل الكثيرون يعتبرونه مناضلًا فذًا، مكافحًا جبارًا، له ما له وعليه ما عليه شأنه شأن معظم العباقرة.

وينسحب الكلام على الكثير من المغامرين، فهؤلاء قد أبهروا العالم إذ اتخذوا طرقًا لم يألفها العالم، ستيف جوبس Steve Jobs (١٩٥٥م - ٢٠١١م) أحد أهم مبتكري العالم iPad- iPod، iPhone، لم يهدف للربح بقدر ما كان الإبداع هو شغله الشاغل،

كان لديه العشق، والعشق قادر على أنْ يحركنا لأماكن لم نألفها، وحين يتحرك الخيال بهذا الشغف والعشق، تتفتح مناطق جديدة قادرة على أنْ تجعلنا أكثر إبداعًا، لقد ترك الجامعة بعد ٦ أشهر، وأحب التاريخ والفن، وباع أوتوبيس فولكس ما كان يمتلكه حتى يبدأ شركة مع وزنياك wozniak الذي باع هو الآخر ما يمتلكه حتى يحققا حلمهما.

حين تفكّر وتستخدم خيالكَ، تفعل كل الأشياء حتى يتسنى لكَ القيام بما تعشقه، والكثيرون أبهرونا عبر التاريخ، لذلك من حقكَ أنْ تعشق حتى الجنون، ويخرج هذا الجنون في صورة إبداعٍ، وهذا الإبداع هو فقط القادر على أنْ يغيِّر وجه الأرض ومجرى التاريخ.

(٦)

أن يثق بكَ الآخرون

حين سافرتُ لأول مرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كانت لي مشاهدات كثيرة، في ذات مرة ركبتُ المترو، وحين نزلتُ ألقيتُ بالتذكرة في سلة القمامة، وذهبتُ لركوب الأوتوبيس، ووقت انتظاري في محطة الأوتوبيس، سألتُ أحد الواقفين بجانبي عن شراء التذاكر، وقد عَلِمَ أني مصري، وقال لي:

ـ بنفس تذكرة المترو ترتاد الأوتوبيس.

فقلتُ له:

ـ لقد رميتها.

فقال لي ببساطة:

ـ قُلْ للسائق.

ولم أتصور أنَّ هذا ممكنًا، وقلتُ لنفسي:

ـ مش قصة، دولار ونصف، إيه يعني.

بس قلتُ برده:

ـ أجرب.

ثم تحدثتُ إلى السائقة، وقلتُ لها:

ـ أنني رميتُ التذكرة؛ لأنني لا أعلم.

فقالتْ لي:

ـ لا توجد مشكلة.

وذهبتُ أجلس مكاني في حالة استغرابٍ.. كيف صدقتني بتلك السرعة؟! ولم تفتح لي تحقيقًا، وبالمرة تسألني: " هو إنت أبوك بيشتغل إيه، أو بتصيف في الساحل الشمالي ولا في جمصة، أو الموبايل (كارت أو خط)" وغيره من تلك الأسئلة المريبة.

(٧)

نصبٌ في كل مكان

قرَّرتُ أنا وصديق لي "أشرف نجيب" أنْ نسافر تركيا، وقد كانت رحلة شديدة المتعة، وقررنا أنْ نأخذ مركبًا إلى البسفور في رحلة بحرية، وسألنا عن السعر، وقالوا لنا: ٢٠ مليون ليرة.

كان ذلك في عام ٢٠٠٥م حيث مليون ونصف ليرة يساوي دولارًا واحدًا، وعلى هذا فهو يعادل حوالي ١٣ دولارًا، ومن الغريب أنَّ الرحلة كانت قصيرة، ولم نرَ البسفور، وفوجئنا بعودة المركب، وسألنا باقي الركاب، وكان معظمهم من الأتراك، وقالوا: إنَّ المركب ليس متجهًا حتى البسفور.. وشككنا في الأمر، وسألنا أحد الركاب كم دفع؟، فقال لنا: ٣ مليون ليرة، أي ما يعادل ٢ دولار.

وأدركتُ أنا وصديقي إن ده كان نصب، وعليه اتجهنا إلى قائد المركب، وحاول يستعبط ويستهبل، لكننا ذكرنا له كلمة الشرطة عدة مرات باللُّغة الإنجليزية، ومن الواضح أنه فهمها جيدًا، فقام برد المبلغ لنا بالكامل.

النصابون والمحتالون في كل مكان، لكنْ لن يضيع حقٌّ وراءه مُطالب بشرط أنْ تكون الشرطة محترفة، ويختفي أصحاب النفوذ.

(٨)

ومن الخوف ما قتل!

قد يقضي الإنسان حياته ملتحفًا بالخوف من الحالي ومن الآتي، ويصبح في ذاك الوقت موجودًا، لكنه لا يعيش، يوجد اسمًا دون فعلٍ، الخوف يوقف عجلة الحياة، ويدمر خلايا الإبداع، وينهي المستقبل قبل أنْ يبدأ.

في أحد أهم أفلام السينما المصرية "ملك وكتابة" من إخراج كاملة أبو ذكري، يكتشف بطل الفيلم "محمود حميدة" أنه أمضى حياته، واتخذ معظم قراراته بدافع الخوف، كان يخشى من مواجهة الكاميرا، وخاف أنْ يصبح ممثّلًا، فهرب إلى التدريس خوفًا من الفشل، وسمى العلاقة مع زوجته حبًا رغم أنها لم تكن كذلك.

وكثيرًا ما نقوم بأشياء في حياتنا، ونسميها أسماء غير حقيقية كنوعٍ من الحماية للوضع الراهن، وليس إيمانًا منا بما نقوم به.

والمجتمع المصري في كثير من الأحيان مجتمعًا يفرز أشخاصًا تخاف كثيرًا، وتتردد في أنْ تقوم بما تحب، والقصة التالية توجع القلب، وتحير العقل معًا.

طفل في بداية العام الدراسي في ٢٧سبتمبر٢٠١٢م بالمنيا، يلدغه عقرب، وهو في الفصل وخوفًا من بطش المعلّمة، كتم الألم ولم يتكلّم ـ وكثير من أطفالنا في مصرنا العزيزة، تعاني الخوف منذ

الصغر حتى الممات خوفًا من بطش أصحاب السلطة أيًا ما كانت سواء دينية أو سياسية أو اقتصادية ـ ويستمر الطفل في التألُّم حتى كاد الألم يفتك به، فيصرخ ويصرِّح بألمه للمعلِّمة، فما كان منها سوى أنها قالتْ له أنْ يذهب لمدير المدرسة.

ولأنَّ الطفل يملأه الخوف، خاف أنْ يذهب إلى الناظر، وظل يهيم بالفناء، وهنا وجده مدرس في فناء المدرسة، وحينما سأله عمَّا أصابه، وقال له، أسرع به إلى المستشفى، لكنه لم يستطع إسعافه لعدم وجود مصل العقرب.

في أي بلدٍ يحترم آدمية البشر، لا يخاف الطفل من أنْ يعبِّر عن ألمه، ويسرع الجميع لإسعافه، مَنْ يتحمل هذا الإهمال الجسيم الذي أنهى حياة طفلٍ، ليس له ذنب سوى أنه وُلِدَ في دولة مقصرة في حماية أطفالها، قادرة فقط على الخطابة.

اللقطة التالية لعائلة مصرية، تعيش بالولايات المتحدة الأمريكية، الابن يلعب بدراجة داخل حديقة المنزل، فيسقط ويصاب بعدة كدمات وتورُّم، ويذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، وحين ترى المعلِّمة تلك الإصابات تسأله: كيف حدث ذلك؟، فيقول لها: لقد وقعتُ أثناء ركوبي الدراجة.

وتذهب المعلِّمة إلى الإدارة المدرسية، وتخبرهم بما حدث، وتخبر الإدارة الشرطة التي تقوم بدورها باصطحاب الطفل إلى منزله، وسؤال الأم عن كيفية حدوث تلك الإصابات، وتقول لهم نفس القصة التي أخبرها لهم الطفل، ثم يسأل الشرطي: هل كان يرتدي

الابن واقي الرأس والكوع والرُّكبة، حين كان يركب الدراجة؟، وترد الأم: لا لم يكن يرتدي أيًّا منها.

وهنا يحذِّرها الشرطي من أنَّ أحد مسئولياتها أنْ تتأكد من أنَّ الطفل يرتدي وسائل الحماية، والاحتياط حتى لا يصاب بأذى، وحذرها بأنه في حال تكرار الأمر ذاته، سوف تقوم الحكومة بسحب الطفل، والقيام برعايته.

والمقارنة سوف تصيبنا بحالة إحباطٍ شديد، فنحن نتكلَّم عن الحياة، ولكنْ لا نحياها، سوف تجد الكثير في كتب القراءة في المدارس المصرية، تتكلَّم عن قيم عظيمة ورائعة، وسوف تكاد تصدِّق حتى تجد هذا التناقض الصارخ بين الواقع وكتب القراءة، وأخشى ما أخشاه أنْ تظل علاقتنا بالواقع هي كتاب القراءة، ووجود وزيري الصحة والتعليم في منصبهما بعد هذا الحادث، هو كارثة حقيقية.

الواقع المصري شديد الخطورة، لكنَّ القائمين على الدولة في حالة انبهارٍ بالسلطة، وسوف يدركون المشاكل فقط حين تحلْ بهم، ومن الأرجح أنهم في حالة من التيه وإنكار المشاكل الحقيقية، وهم مثلهم مثل كتاب القراءة كلام كبير وبس.

(٩)

في عمر الزهور، ولكن..

منظومة القيم في أي مجتمعٍ لا تستقيم ما لم يكن على رأسها الحُرِّية، وفي المجتمع الحُرِّ لا يخاف الأطفال، ولا يُفرض عليهم ملابس بعينها.

في مصرنا العزيزة في ١٧أكتوبر٢٠١٢م سوف يظل تاريخًا يندى له الجبين، سوف تتذكر طفلتين في عمر الزهور: "منى الراوي" و"علا منصور" في التاسعة من عمرهما، أنَّ المعلّمة قامتْ بقص شعرهما لعدم تغطيتهما لرأسيهما، فكيف لتلك المعلّمة أنْ تفرض ما تعتقد هي أنه صواب على الطالبات، سوف تظل الذكرى عالقةً في ذهن الطالبتين لفترة من الزمن، القهر لا يجعل أي منا صحيحًا نفسيًا، وهذه المعلّمة عبثتْ ببراءة الأطفال معتقدة أنَّ هذا أحد أدوارها، وهذه مشكلة أبدية بمصر، فنحن نخلط أشياء لا تجتمع.

ما هو دور المعلّم؟ هو بالأساس دور مهني، ومن خلال تلك المهنية قد تنتقل بعض القيم عن طريق الملاحظة، وخصوصًا في مرحلة الطفولة حيث يكتسب الأطفال القيم والعادات من خلال الملاحظة، وليس من خلال الدور الواعظ، وكثير من المعلّمين في مصر، وحتى أساتذة الجامعات في مصر ينسون الدور المهني، وينزلقون إلى وعظ الطلاب وإملاء آرائهم عليهم.

المهمة الرئيسية للمعلّم هي التعليم، وما يحدث إضافة إلى ذلك، يحدث في سياقاتٍ محددة، وليس بترتيبٍ محدد؛ لنقلْ أنَّ هناك مدرسًا لمادة الفيزياء، لا يمكن أنْ يكون له دور أعظم من التدريس بشكلٍ مهني، ولكنْ ما دفع تلك المعلّمة للقيام بدور حلاق في ثوب معلّمة، هي الحيرة وعدم إدراك الدور المنوط بها القيام به، لها دور أساسي هو التعليم، ولو قامتْ به على خير وجه، ولم تُضع الوقت في توجيه الآخرين إلى صحيح الدين حيث إنه في هذه المرحلة هو دور الأسرة ورجال الدين فقط.

حين تهتم وتنصح الآخرين دون أنْ تكون مدعوًا لذلك، فأنتَ تكسر أهم قواعد الحياة، أنتَ تخترق خصوصية الآخر.

(١٠)

هل تربيت في هذا البلد؟

خلال وقوفي في طابور لمطعم "بيكاديللي" في أتلانتا Atlanta بولأيَّة جورجياGeorgia الأمريكية، كنتُ أتحدث مع صديقٍ أمريكي "David" ولم ينتبه لمكانه في الطابور، وتقدَّم على شخصٍ آخر، وفجأة ودون مقدمات سمعتُ تلك الجملة:

- "were you raised in this country?"

"هل تربيتَ في هذا البلد؟"

وبالطبع كان يقصد أننا في هذا البلد نحترم الطابور، وتوقعتُ أنْ يتم تراشق لفظي ينتهي بخناقة، ولكنَّ رد فعل ديفيد"David" قد أبهرني إذ تحرك للخلف مسرعًا واعتذر بشدة، وهذا وإنْ دلَّ فهو يدلّل على أنَّ فكرة الذات عند ديفيد وغيره الكثير من الأمريكيين ليستْ متضخمة، ففور إدراك ديفيد لخطئه، لم يعاند أو يكابر بل قام على الفور بالاعتذار، وهذا هو الغرض الرئيسي لتلك الحكاية.

حينما تتضخم الذات يصعب علينا الاعتذار، وقد نخسر الآخرين، وقد يكون لدينا معهم ذكريات وتاريخ طويل، لكنَّ الذات قد تؤدي إلى خسارة الأشياء والأشخاص.

(١١)

لا للبيروقراطية

قمتُ بزيارة قبرص في عام ٢٠٠٦م، وخلال تجولي بوسط مدينة ليماسول، لفت انتباهي محل للأعمال الخشبية ـ هدايا وتحف ـ وقمتُ بالتحدُّث مع الفتاة عن بعض المعروضات، وهي فتاة إنجليزية، وتبادر لي سؤال، وكان السؤال عن الوقت الذي استغرقته حتى يصرَّح لها بفتح هذا المشروع لكونها أجنبية؟

فقالتْ لي: إنها جاءتْ كسائحة مع صديقها، وأُعجبتْ بالبلد، فقررتْ بدء هذا المشروع الصغير، وكل ما قامتْ به بعد دراسة المشروع، أنها استأجرتْ المحل، وذهبتْ للحصول على التصريح صباحًا، وقامتْ بفتح المحل مساءً.

وكانت الصدمة لي في مدى سهولة الحصول على التصاريح، وإقامة مشاريع بتلك السهولة في بلدٍ صغيرٍ مثل قبرص، وعن مدى الصعوبة وانتشار الرشاوى والتعقيدات البيروقراطية في مصر، وتلك تدمر أي طريقٍ يسبر في اتجاه أي نهضة.